

موقف القديس أوغسطينوس من الغزو الوندالي لشمال إفريقيا
**The Stance of Saint Augustine on the Vandal Invasion of
North Africa**

الباحث: عيسى حاجي

جامعة الجزائر 02 (الجزائر)، hadji.aissa.16@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/04/11 تاريخ القبول: 2025/06/04 تاريخ النشر: 2025/06/15

ملخص:

شهدت منطقة شمال إفريقيا في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي سلسلة من الاضطرابات العميقة التي تركت أثراً كبيراً على تاريخ المنطقة، كان أبرزها الغزو الوندالي بقيادة الملك جنسريك. في الجزء الأول من هذا المقال، تناولت المراحل الأولى لهذا الغزو وأبرز أسبابه، مع تسليط الضوء على وقائع حصار مدينة هيبون تحديداً وكان ذلك سنة 430م، وذلك اعتماداً على وصف المؤرخين المعاصرين لهذه الأحداث.

أما في الجزء الثاني، فقد ركزت على موقف القديس أوغسطينوس، الذي عاصر بداية هذه الأحداث ولكنه توفي بينما كانت مدينة هيبون لا تزال تحت الحصار. حاولت من خلال هذا العمل تحليل ما تركه أوغسطينوس من كتابات تناولت هذه الفترة، حيث استندت إلى أربعة أعمال رئيسية تشمل ثلاث رسائل وخطبة. كما أرفقت النصوص الأصلية اللاتينية لهذه الأعمال مع ترجمتها إلى العربية، لإبراز رؤيته الخاصة تجاه الغزو.

واختتمت المقال بالإشارة إلى وفاة القديس أوغسطينوس، التي مثلت نهاية حقبة مهمة في تاريخ هيبون، لتكون هذه الخاتمة بمثابة تنويع للنقاش حول تأثير هذه الأحداث على المنطقة وشخصياتها البارزة.

كلمات مفتاحية: الوندال، الغزو الوندالي، هيبون، القديس أوغسطينوس، جنسريك.

Abstract:

The region of North Africa in the first half of the 5th century AD experienced a series of profound upheavals that left a significant mark on its history, the most notable of which was the Vandal invasion led by King Genseric. In the first part of this article, I explored the early stages of this invasion and its main causes, focusing particularly on the events surrounding the siege of the city of Hippo in 430 AD, based on accounts provided by contemporary historians.

In the second part, I concentrated on the stance of Saint Augustine, who witnessed the beginning of these events but passed away while Hippo was still under siege. Through this work, I aimed to analyze the writings Saint Augustine left behind regarding this period. These writings consist of four major works: three letters and a sermon. I also included the original Latin texts of these works alongside their Arabic translations to highlight his unique perspective on the invasion.

The article concludes by addressing the death of Saint Augustine, which marked the end of an important era in the history of Hippo. This conclusion serves as a culmination of the discussion on the impact of these events on the region and its prominent figures.

Keywords: The Vandals, Vandal invasion, Hippo, Saint Augustine, Genseric.

1. مقدمة

لقد عاشت الإمبراطورية الرومانية أواخر القرن الرابع أحداث هزت كيانها وفقدت قوتها خاصة بعد الانقسام الذي شهدته سنة 395م وتحولت إلى إمبراطورية رومانية غربية وشرقية، وأيضاً من نتاج هذا الضعف هجمات القبائل الجرمانية، وفي مطلع ثلاثينات القرن الخامس شهدت منطقة شمال إفريقيا واحدة من أكثر الفترات اضطراباً في تاريخها فقد تمثلت في الغزو الوندالي للمنطقة على يد الملك جنسريك وبالرغم من محاولات سابقة للغزو. وكانت من أهم المدن التي حوصرت وتم السيطرة عليها هي مدينة هيبون والتي تعد ثاني أهم مدينة بعد قرطاج وهي المدينة التي يقيم فيها القديس أوغسطينوس أحد أعظم المفكرين اللاهوتيين والفلاسفة المسيحيين في التاريخ. كان الحصار بمثابة اختبار قاسٍ للمدينة وسكانها، إذ عانوا من نقص الإمدادات وتصاعد التهديد العسكري. وكان ذلك سنة 430م وكانت تلك السنة آخر سنة في حياة القديس أوغسطينوس، إلا أن أوغسطينوس كان له دور في تسجيل هذه الأحداث من خلال ما تركه من أعمال والتي استطاع من خلالها أن يعبر عن رؤيته للأحداث وعن موقفه من الغزو، ومن خلال هذا سنحاول في هذا المقال أن نفهم فيه كيف تم حصار مدينة هيبون وأيضاً نستقرأ موقف القديس أوغسطينوس من الغزو وهذا من خلال كتاباته القليلة للموضوع والتي كانت عبارة عن رسائل وخطب.

2. الغزو الوندالي وموقف القديس أوغسطينوس منه:

تعد السنة الأخيرة من حياة القديس أوغسطينوس هي السنة المأساوية في حياته، فبعد أن كان يدافع عن المسيحية من أجل الرب ضد المانويين والدوناتيين والبيلاجيوس كل هذه الانتصارات لم يتلذذ بها أوغسطين وما سيراه من بؤس وحزن (خديجة زموري، 2018، ص 105) خاصة بعد الهجمات الوندالية¹ على بلاد

¹ الوندال **les Vandales**: يكتب اسم الوندال باللغة اللاتينية بعدة أشكال منها Vindali أو Vindili وغيرها أما بالإغريقية تكتب Bandiloi، أما بالألمانية فهي اسم مشتق من الفعل Wendeln، وتعني الترحال والتجوال، أما في

المغرب سنة 492م على يد ملكهم جنسريك، خاصة بعد محاصرتهم لهيبون سنة 430م (عماد الطويل، د.ت، ص03)، ومن خلال كتاب بوسيديوس وفيكتور الفيتي فإن الاحتلال الوندالي تبعته أعمال فظيعة من عبث بالأشجار والمزروعات وحرق الكنائس وإمعان في تعذيب الأساقفة ورجال الكنيسة وتقتيل للشيوخ والأطفال (Possidius, 1988, p111-112).

1.2 حصار مدينة هيبون:

تعود أسباب الغزو الوندالي لشمال إفريقيا إلى عدة أسباب لا يمكن حصرها في عنصر واحد، لكن الغزو الوندالي حدث بسبب تراكمات سهلت الفرصة للونداليين بالدخول لشمال إفريقيا رغم أن هذا الغزو سبقته محاولات عديدة منها محاولة الملك الجرمانى ألريك سنة 410م مغادرة إيطاليا والتوجه لإفريقيا إلا أن أسطوله تعرض في خليج مسينا إلى عواصف بحرية أجبرته على التوقف، كما قرر ملك القوط الغربيين فاليا احتلال إفريقيا سنة 415م انطلاقا من إسبانيا لكن العواصف البحرية أوقفتها (يوسف عيبش، 2007، ص25-26).

كما أن من أهم أسباب رغبة الوندال في احتلال شمال إفريقيا هو ضعف الإمبراطورية الرومانية خاصة بعد انقسامها سنة 395م من طرف الإمبراطور

قاموس الأكاديمية الفرنسية نجد أن تعريف الوندال هو من يدمر نصبا أو يفسد عملا فنيا والوندالية Le Vandalisme يقصد بها سلوك، حالة ذهنية لأولئك الذين يدمرون الآثار، ويعد من القبائل الجرمانية الشرقية أما بخصوص موطنهم الرسمي فقد اختلف فيه الباحثين هناك من يرجعهم إلى قرية في السويد تسمى فاندال وهناك من يرجعهم لأصول نرويجية أي أن موطنهم الأصلي إقليم إسكندفيا، وهناك من يرجع أصلهم إلى وسط أوروبا في المنطقة الواقعة بين نهر الأودر والفيستول، وقد هاجروا موطنهم إلى أن وصلوا إسبانيا سنة 409م وقد اعتنقوا خلال هجراتهم داخل أوروبا المسيحية الأريوسية، ثم وصلوا منطقة بلاد المغرب القديم لاحتلالها ابتداء من سنة 429م إلى غاية 534م وأسسوا فيها مملكتهم. للمزيد أنظر:

نبيلة حمودي، مقاومة المور للاحتلال الوندالي (429-533م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه الطور الثالث ل.م.د تخصص تاريخ الحضارات القديمة، تحت إشراف: بنت النبي مقدم، جامعة الجزائر 02، 2020/2019، ص

124-127. وأيضا Le Dictionnaire de la Cadmie Française

ثيودسيوس² إلى إمبراطورية رومانية شرقية وغربية بين ولديه، والذي ترتب عنه ظهور عدة أزمات خاصة داخل الإمبراطورية الرومانية الغربية (سيد أحمد علي الناصري، 1991، ص 468)، زيادة على ذلك تمرد القائد الكونت بونيفاص³ خاصة بعد وفاة الإمبراطور الروماني الغربي هونوريوس سنة 423م، حيث أن بونيفاص لم يعترف بيوحنا الذي أعلن نفسه إمبراطورا في إيطاليا ووقف لجانب ابن أخت هونوريوس غالة بلاسيديا وابنها فلانتينوس الثالث الذي كان في عمره أربع سنوات (محمد الهادي حارش، 2013، ص 209)، وكان هذا وراء طمعه في أن يتحصل على لقب "سيد السلاحين" أي قائد أعلى، إلا أنه لم يتحصل عليه في نهاية المطاف (شارل أندري

² ثيودسيوس Theodosius Magnus: ولد سنة 347م بمدينة كوكا الإسبانية وينتمي لعائلة عسكرية حيث كان أبوه جنرال رفيع المستوى، واصل ابنه نفس مسيرة والده في لجيش الروماني وأصبح قائدا عسكريا عينه الإمبراطور جراتيان خلفا للإمبراطور الروماني الشرقي بالقسطنطينية بعد وفاة فالنس حاكمها وكان ذلك سنة 379م وكان إمبراطور الشرق وبعد وفاة جراتيان وحد الغرب والشرق ليصبح إمبراطورا لكليهما، وقد اعتنق المسيحية النيقية سنة 380م وأمر بعقد المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية سنة 381م، وقد أبعد الديانة الوثنية وحظر ممارستها، حيث وقع في عهده اضطهادات ضد الوثنيين والمانويين أيضا، وقد أصدر مرسوم يزبح كل المسيحيين غير النيقيين من الكنيسة، ووقع هدنة مع القوط سمح لهم بالاستقرار في تراشيا كمجندين في الجيش الروماني سنة 382م، وقد واجهته عدة تمردات داخلية آخرها تمرد أوجينيوس سنة 392م وقد قضى عليه ليوحده الإمبراطورية من جديد، توفي ثيودسيوس سنة 395م لتتقسم بعده الإمبراطورية الرومانية نهائيا بعد وفاته للمزيد أنظر: أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، د ط، مؤسسة الهنداوي للنشر، المملكة المتحدة، 2017، ص 85-94.

³ الكونت بونيفاص Comte Boniface: هو قائد عسكري روماني لا نعرف عن مولده أي شيء، كان أول ظهور لبونيفاص كجنرال للإمبراطور قسطنطينوس الثالث سنة 413م عندما هزم القوط الغربيين بمرسليا، وكان له دور كبير في إخماد الثورات المورية ببلاد المغرب، وقد كان صديقا للقديس أوغسطين وراسله كثيرا في بعض المسائل المتعلقة بالإيمان المسيحي وطبيعة عمله، وقد عين كونت على إفريقيا سنة 421م من طرف الإمبراطور هونوريوس، وقد كان حلفيا للإمبراطور فلنتينيان الثالث وعمته غاللا بلاسيديا، تزوج بونيفاص زوجته الثانية التي كانت ابنت أخ الملك الوندالي جنسريك الأريوسي، وبسبب خلافه مع بلاسيديا والتي قامت بحملة عسكرية ضده بسبب استقلاله بإفريقيا طلب المساعدة من جنسريك والذي مهد لدخول الوندال لإفريقيا، توفي سنة 432م متأثرا بجروح إصابته في الحرب. للمزيد أنظر:

<https://journals.openedition.org/anabases/5793>, 23/05/2024, 02:16.

جوليان، 1983، ص323)، إضافة لذلك رفضه للقدوم إلى مدينة رافن بعدما استدعته بلاسيديا سنة 427م التي رأت بأن الأمر تصريح صارخ منه بالاستقلال بمقاطعة إفريقيا (نبيلة حمودي، 2020، ص146).

هذا ويذكر لنا أوغسطينوس في رسالته أن بونيفاص تزوج الزوجة الثانية ابنة أخ جنسريك الأريوسية الوندالية الذي جعل أوغسطينوس في دهشة وحيرة لا توصف حسب قوله لأن هذا الأمر منافي للعقيدة الكاثوليكية وأنها من فرق الهرطقة (Saint Augustin, Epistula CCXX)، وقد أرسلت بلاسيديا جيشا لإخضاع بونيفاص وقد طلب هذا الأخير مساعدة الملك جنسريك⁴، ووعدته بتقسيم شمال إفريقيا معه إلى قسمين: الغربي لجنسريك الذي يتكون من موريطانيا والمنطقة الواقعة من شرق واد لومبساق إلى قرطاج لبونيفاص، وهذا الأمر شجع جنسريك للقيام بحملته لأنها بالنسبة إليه فرصة لا تعوض خوفا من الحملات الجرمانية على المنطقة، فهي بالنسبة لجنسريك المنطقة الأمثل للاستقرار وتكوين دولة مستقلة بعيدا عن الصراعات التي شهدتها شبه الجزيرة الإيبيرية مع القوط الغربيين (عماد الطويل، 2018، ص112).

⁴ جنسريك Gaisericus: ولد سنة حوالي 389م بالقرب من بحيرة بالاتون في المجر، وهو الابن غير الشرعي للملك جوديغيل وأخوه غير الشقيق الملك جوندريك الذي تولى الحكم بعد وفاة والديه سنة 406م، قد أظهر براعته الحربية في غزوات الوندال عبر أوروبا وصولا إلى إسبانيا، وفي سنة 429م مات الملك جوندريك أثناء عملية تخريب مدينة إشبيلية، تولى الحكم بعده جنسريك، عبر مضيق هرقل بعدما استنجد به الكونت بونيفاص ليدخل إفريقيا مع شعبه وجيشه ليسطر على شمال إفريقيا وقد حاصر مدينة هيبو لمدة 14 شهر، واستولى على قرطاج سنة 439م واتخذها عاصمة له، وقد قاد قواته سنة 455م في هجوم ناجح في روما، توفي سنة 477م بعد حكم دام حوالي 50 سنة. للمزيد أنظر:

Poultny Bigelow, Genseric king of the Vandals and first prussian kaiser, 2ème edition, The Knickerbocker press, London, 1918, p1-31.

كان السبب الاقتصادي وراء غزو الوندال لشمال إفريقيا من أبرز وأهم الأسباب، نظر لكون المنطقة تزخر بثراء وتنوع اقتصادي خاصة وأنها غنية بمواردها الزراعية كالقمح، الكروم والزيتون (عماد الطويل، 2018، ص111)، فقد تحدث الأسقف كودفولتديوس⁵ (Quodvultdeus) وينعتها عشية الغزو الوندالي بالرفاهية والاستقرار حيث يقول في خطبته في زمن البرابرة:

« Vbi est Africa, quae toto mundo fuit uelut bortus deliciarum ? Vbi tot regionis, ubi tantae splendidissimae ciuitates » (Quodvultdeus, Sermo II)

"أين هي إفريقيا التي كانت في العالم كله كحديقة للملذات؟ أين هي تلك المناطق العديدة، وأين تلك المدن الفخمة العديدة؟"

أما بخصوص فيكتور الفيتي يصفها بالمقاطعة الهادئة، المستقرة، الجميلة والمزدهرة (يوسف عيبيش، 2007، ص25).

⁵ كودفولتديوس Quodvultdeus: والذي يعني اسمه ما يريده الله، كان كودفولتديوس أسقف قرطاج في القرن الخامس ميلادي وشخصية بارزة في التاريخ المسيحي المبكر، لا يعرف الكثير عن حياته المبكرة، لكن المرجح بأنه ولد سنة 390م بقرطاج وأنه يتضح لنا من خلال أعماله بأنه تلقى تعليماً صارماً في اللاهوت والدراسات الكلاسيكية. وقد عرف كودفولتديوس لأول مرة من خلال تبادل رسائل مع القديس أوغسطينوس بين سنتين 428-429م وقد طلب له بأن يؤلف له كتاباً عن الهرطقة وقد وافق أوغسطينوس على ذلك. ومن المتفق عليه أن كودفولتديوس عمل شماساً في كنيسة قرطاج وفي سنة 435م أصبح مساعد أسقف وبحلول سنة 437م خلف الأسقف كايبولوس ليصبح بعده أسقفاً لكنيسة قرطاج، وفي سنة 439م انتهك القائد جنسريك المعاهدة المتفقاً مع الإمبراطورية الرومانية وشن هجوماً على قرطاج وغزاها وبعد ذلك أزال جميع القادة المسيحيين غير الأريوسيين، وقد رفض كودفولتديوس التخلي عن إيمانه وقبل الخضوع للنفي هو وجماعته حيث تم نفيهم لنابولي أين رحب به سكان المدينة وساعده في إكمال مساعيه اللاهوتية لبقية حياته. أما بخصوص أشهر أعماله فنذكر منها: كتاب عن وعود الله ونبوءاته Liber de Promissionibus et Praedictionibus Dei، وكتاب عن الزمن البربري De Tempore Barbarico، وكتاب ضد اليهود Liber contra Iudaeos، وغيرها من الأعمال. توفي الأسقف كودفولتديوس بنابولي من سنة 454م ومن المرجح أنه دفن بسرديب الموتى بسانت جينارو على منحدر كابوديموني بسبب وجود فسيفساء ترسم شخصيته تعود للقرن الخامس ميلادي. للمزيد أنظر:

David L. Eastman, Quodvultdeus of Carthage, Journal of African Christian Biography, vol 09, no 01, 2024, p14-15.

انتقلت جيوش جنسريك إلى سواحل شمال إفريقيا عبر مضيق هرقل (جبل طارق) في ماي 429م، وقد صحب معه شعبه بالكامل وتقدر بعض المؤرخين على رأسهم فيكتور الفيتي أن عددهم 80000 نسمة مجتمعين بالجيش والمدنيين (Victor Vitis, Liber I §1)، غير أن للمؤرخ بروكبيوس القيصري رأي آخر وقد حدد لنا عدد الوندال لا يتجاوز 50000 نسمة مجتمعين (Procopé de Césarée, 2009, V, 3)، ويذكر لنا بوسيديوس أنه انتقل الجيش الوندالي مجهزا بالأسلحة بصحبة الألان ممتزجين مع القوط ورجال من مختلف الأمم (Possidius, 1988, p111)، لكن سرعان ما تزايدت قواته من المنضمين من الأهالي الذين لم يبدوا أية مقاومة بل بالعكس ساعدوهم بسبب ما عانوه من الرومان، وحتى الرومان أنفسهم القاطنين بالمنطقة انضموا للجيش الوندالي بسبب قساوة الإدارة الرومانية خاصة ما يتعلق بالضرائب التي أثقلت كاهلهم (محمد الهادي حارش، 2013، ص212-213)، وقد وقفوا معهم الدوناتيين الذين اضطهروا وتم تشريدتهم وتجريد ممتلكاتهم من قبل الكاثوليك.

لم تستطع الإمبراطورية الرومانية الغربية أن تقف أمام الزحف الوندالي، حتى أن بونيفاص أدرك خطورة خطأه، عندما استعان بالوندال، حيث استوجب على بلاسيديا أن تصالحه بواسطة القائد داريوس الذي كان يشغل منصباً رفيعاً في البلاط الإمبراطوري (محمود سعيد عمران، 1985، ص26)، وان يعقد السلام مع الوندال، وأستطاع داريوس أن يحقق بعض السلام لبعض الوقت من الوندال (Saint Augustin, Epistula CCXXIX)، فأسندت بذلك قيادة الجيش إلى بونيفاص إلا أنه لم يستطع الصمود أمام الوندال بسبب تشتت قواته في كل من قرطاجة وهيبون وسيرتا، وأيضاً بسبب تأخر الإمدادات التي طلبها من روما، مما أدى لانسحابه إلى هيبون لكن

تبعته القوات الوندالية وقاموا بمحاصرة المدينة في ماي 430م لمدة 14 شهرا (نبيلة حمودي، 2020، ص159)، وكان الحصار برا وحتى بحرا ويؤكد لنا ذلك بوسيديوس الذي عايش الأحداث بقوله "...أحاط العدو بها وحاصرها لمدة تقارب الأربعة عشر شهرا، حيث أغلق حتى الساحل البحري..." (Possidius, 1988, p113).

كما يصف بوسيديوس لنا فظاعة المشهد وما قام به الوندال من تخريب وتدمير ويصف ما كان يشاهده أوغسطينوس في آخر أيامه قائلا "...فرأى رجل الله المدن مدمرة، والمزارع مهدامة وسكانها إما مذبحون على يد العدو أو هاربين ومشتتين، والكنائس محرومة من كهنة وخدام...من هؤلاء مات البعض بسبب التعذيب، وقتل آخرون بالسيف...اختفت الترانيم والتسابيح لله من الكنائس، في معظم الأماكن، تم إحراق مباني الكنائس..." (Possidius, 1988, p112).

2.2 موقف القديس أوغسطينوس:

تزرخ الكنيسة حاليا بأعمال القديس أوغسطينوس الذي قضى جل حياته في كتابتها، حيث ترك لنا أزيد من 200 رسالة وما يفوق 500 موعظة وحوالي 113 مقالا، وعلى ذكر رسائله ترك مجموعة من الرسائل التي كان يرسل بها أصدقاءه وأيضا يجيب فيها على التساؤلات الموجهة له، فمن خلال هذه الرسائل استطعنا أن نتعرف على موقفه اتجاه الأحداث التي تقع في المنطقة خاصة قبيل الغزو الوندالي، انطلاقا من هذا سنقدم بعض النماذج من رسائله.

في الرسالة رقم 220 والتي كتبت سنة 427م، وجهها لصديقه القائد بونيفاس الذي كان يذكره عندما كان يرافقه مع ألبوس وحدثه عن إيمانه الكاثوليكي وكيف كان زاهد وقتها وعن حياة الرجل المسيحي الكاثوليكي الحق، وبعد هذا التقديم يعاتبه أوغسطين بفعلة أنه تزوج زوجة ثانية غير كاثوليكية ومن فرقة الهرطقة كما يشير أوغسطين في الرسالة وهو يقصد بتلك الفرقة بالأريوسية حيث تزوج بونيفاس ابنت

الباحث: عيسى حاجي

أخ ملك الوندال جنسريك، بعدها يواصل أوغسطينوس حديثه عن الخراب الذي ألحقه الوندال في إفريقيا ويلوم بونيفاص عن عدم القيام بواجبه في الصد لهم ويقول في رسالته:

« Domino filio in praesentem et in aeternam salutem Dei misericordia protegendo et regendo BONIFACIO, AUGUSTINUS.

...Scis autem qualem me apud Hipponem videris, quando ad me venire dignatus es, quia vix loquebar, imbecillitate corporis fatigatus. Nunc ergo, fili, audi me, saltem per litteras tibi sermocinantem, quas in periculis tuis nunquam tibi mittere potui, periculum cogitans perlatoris, et cavens ne ad eos ad quos nollem, mea epistola perveniret. Unde peto ut ignoscas, si me putas plus timuisse quam debui: tamen dixi quod timui...Quid autem dicam de vastatione Africae, quam faciunt Afri barbari, resistente nullo, dum tu talibus tuis necessitatibus occuparis, nec aliquid ordinas unde ista calamitas avertatur? Quis autem crederet, quis timeret, Bonifacio domesticorum et Africae comite in Africa constituto cum tam magno exercitu et potestate, qui tribunus cum paucis foederatis omnes ipsas gentes expugnando et terrendo pacaverat, nunc tantum fuisse barbaros ausuros, tantum progressuros, tanta vastaturos, tanta rapturos, tanta loca quae plena populis fuerant, deserta facturos? Qui non dicebant quandocumque tu comitivam sumeres potestatem, Afros barbaros, non solum domitos, sed etiam tributarios futuros Romanae reipublicae? Et nunc quam in contrarium versa sit spes hominum vides; nec diutius hinc tecum loquendum est, quia plus ea tu potes cogitare quam nos dicere. »

(Saint Augustin, Epistula CCXX, §2, §7)

ومعناه " إلى الابن الحبيب، تحت حماية ورحمة الله، لخلاصه في الحاضر والأبدية، بونيفاكْيوس، من أوغسطينوس.

تعلم كيف كنت عندما رأيتني في هيبو، عندما تكلمت بالمجيء إليّ، إذ كنت بالكاد أتكلم، بسبب الإرهاق الناتج عن ضعف الجسد. الآن، يا ابني، استمع إليّ، على الأقل عبر هذه الرسالة، إذ لم أستطع إرسالها إليك سابقًا بسبب الأخطار التي كانت تهدد حاملها، وتجنبًا لوصول رسالتي إلى من لا أرغب في أن تصل إليهم. لذلك، أطلب منك العذر إن كنت تظن أنني خشيت أكثر مما ينبغي؛ مع ذلك، أخبرتك بما خشيت...ماذا أقول عن الخراب الذي يسببه البرابرة الأفارقة في إفريقيا؟ لا أحد يقاومهم، بينما أنت مشغول بمثل هذه الحاجات الملحة، ولا تقوم بترتيب أي شيء لدفع هذه الكارثة. من كان ليصدق، ومن كان ليخشى، أنه في وجود بونيفاص، قائد الجيش الإفريقي وحاكم البلاد، مع هذا الجيش العظيم وهذه السلطة، الذي عندما كان مجرد قائد صغير استطاع مع القليل من الحلفاء إخضاع وترويع جميع تلك الشعوب؟ والآن، هؤلاء البرابرة يجروؤن على هذا القدر من التجاوزات، ويتقدمون إلى هذا الحد، وينهبون ويدمرون هذا الكم الكبير من الأراضي التي كانت مأهولة بالسكان وجعلوها قاحلة؟ من كان ليقول، عندما توليت السلطة، أن البرابرة الأفارقة لن يصبحوا فقط مروضين بل خاضعين لدفع الجزية للدولة الرومانية؟ والآن ترى بنفسك كيف انقلبت آمال الناس إلى العكس. لا حاجة للاسترسال في الحديث عن هذا معك، لأنك تعرف هذه الأمور أكثر مما يمكننا قوله "

ففي الرسالة رقم 228 والتي كتبت حوالي 429م، كان أوغسطينوس يجيب على سؤال الأسقف هونوراتوس وقد طرح فيه هذا الأخير حول ما يجب القيام به في ظل الأخطار التي حلت بنا في هذه الأوقات، فيجيبه أوغسطينوس أنه بالرغم ما ورد في إنجيل متى " ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى أخرى " (إنجيل متى، الإصحاح 10: 23)، إلا أن أوغسطين حث على البقاء في الكنائس، حتى لو وصل بعض الأشخاص إلى أماكن آمنة، معتبرا ذلك خدمة للسيد المسيح، وأن على الأساقفة تحمل المعاناة كما يتحملها الأشخاص العاديون، متمثلة بالتضحية في سبيل الآخرين، مثلما فدى المسيح نفسه للبشرية، وأكد في

الباحث: عيسى حاجي

آخر الرسالة أن الهروب ليس الحل، بل ينبغي أن يضحووا بأنفسهم في الدفاع عن المدن ضد الهجمات ويقول أوغسطينوس في هذه الرسالة:

Sancto fratri et coepiscopo HONORATO, AUGUSTINUS, in Domino salutem .

« 3. Quod si contigerit ut sive alii minus, alii majus, sive omnes aequaliter patiantur, qui eorum sint qui pro aliis patiuntur, apparet; illi scilicet qui cum se possent talibus malis eripere fugiendo, ne aliorum necessitatem desererent, manere maluerunt. Hinc maxime probatur illa charitas quam Joannes apostolus commendat, dicens: Sicut Christus animam suam pro nobis posuit, sic et nos debemus animas pro fratribus ponere (I Joan. III, 16). Nam qui fugiunt, vel suis devincti necessitatibus fugere non possunt; si comprehensi patiuntur, pro seipsis, non pro fratribus, utique patiuntur: qui vero propterea patiuntur, quia fratres, qui eis ad christianam salutem indigebant, deserere noluerunt, sine dubio suas animas pro fratribus ponunt.

4. Unde illud quod episcopum quemdam dixisse audivimus, Si Dominus nobis imperavit fugam in eis persecutionibus, ubi potest fructus esse martyrii; quanto magis debemus fugere steriles passiones, quando est barbaricus et hostilis incursus? verum est quidem et acceptabile, sed his quos ecclesiastici officii non tenent vincula. Nam qui clades hostiles ideo non fugit, cum possit effugere, ne deserat ministerium Christi, sine quo non possunt homines vel fieri vel vivere christiani, majorem charitatis invenit fructum, quam qui non propter fratres, sed propter seipsum fugiens, atque comprehensus non negat Christum, suscipitque martyrium. » (Saint Augustin, Epistula CCXXVIII , §3, §4).

ومعناه: " إلى الأخ القديس والشريك في الأسقفية هونوراتوس، من أوغسطينوس، تحية في الرب

3. إذا حدث أن البعض يعانون أقل، والبعض الآخر أكثر، أو أن الجميع يعانون بالتساوي، يظهر من هم الذين يعانون من أجل الآخرين؛ وهم بالتحديد أولئك الذين، بينما كان بإمكانهم إنقاذ أنفسهم من هذه الشرور بالفرار، فضلوا البقاء حتى لا يتخلوا عن حاجة الآخرين. وهكذا تُظهر المحبة التي أشاد بها الرسول يوحنا، قائلاً: ما وضع المسيح نفسه من أجلنا، كذلك يجب علينا أن نضع أنفسنا من أجل الإخوة (1 يوحنا 3:16). لأن الذين يفرون، أو الذين لا يستطيعون الفرار بسبب احتياجاتهم الخاصة، إذا تم القبض عليهم وعانوا، فإنهم يعانون من أجل أنفسهم وليس من أجل الإخوة. أما الذين يعانون لأنهم رفضوا التخلي عن الإخوة الذين كانوا بحاجة إليهم للخلاص المسيحي، فلا شك أنهم يضعون أنفسهم من أجل الإخوة.

4. ولذلك، ما سمعناه من أحد الأساقفة الذي قال: إذا كان الرب قد أمرنا بالفرار في أوقات الاضطهاد التي قد تُثمر عنها الشهادة، فكم بالأحرى يجب أن نهرب من معاناة عقيدة عندما يكون الأمر متعلقاً بغزو بربري أو عدواني؟، هو قول صحيح ومقبول، لكنه ينطبق فقط على من لا يُقيدون بقيود الخدمة الكنسية. أما من يرفض الهروب من الكوارث العدوانية، رغم قدرته على ذلك، حتى لا يتخلى عن خدمة المسيح التي بدونها لا يمكن للناس أن يصبحوا مسيحيين أو يواصلوا حياتهم المسيحية، فإنه يظهر محبة أعظم بكثير من الذي يفر من أجل نفسه، وإذا قُبض عليه فإنه لا ينكر المسيح بل ينال الشهادة".

ومن المهم أن البلاط في روما اضطرب من هذه الأحداث، وكان عليه أن يتخذ بعض الخطوات العملية لمحاولة السيطرة على الشمال الإفريقي، خاصة أن قرطاج كانت تمد روما بالقمح. ولم يتأني ذلك إلا باتحاد القوات الإمبراطورية وإعادة ولاء القائد بونيفاص. وعهدت بلاسيديا إلى القائد داريوس الذي كان يشغل منصباً عالياً في البلاط الإمبراطوري، وكانت مهمته محصورة في عقد الصلح مع القائد بونيفاص، وعقد سلام مع الوندال. وقد استطاع هذا الأخير كسب ولاء القائد بونيفاص كما أنه نجح في وقف القتال مع الوندال لفترة محدودة (محمود سعيد عمران، 1985، ص26)، لذا نجد القديس أوغسطينوس في الرسالة

رقم 229 والتي كتبت سنة 429م، وكانت موجهة للقائد الروماني داريوس ويثني عليه دوره في إحلال السلام وإيقاف الحرب والدمار وأنه يجب مواصلة الحرب بالكلمة، بدلا من ذبح الناس بالسيف، ويقول في هذه الرسالة:

« Domino merito illustri, et magnificentissimo atque in Christo charissimo filio DARIO , AUGUSTINUS, in Domino salutem.

1. A sanctis fratribus et coepiscopis meis Urbano et Novato, qualis sis vir et quantus, accepi: quorum alteri apud Carthaginem in Hilarensi oppido, et modo in Siccensi; alteri autem apud Sitifim te nosse provenit. Per hos ergo factum est, ut nec ego te habere incognitum possem. Neque enim quia me infirmitas corporis, et congenitum frigus, id est, genus aetatis non sinit coram tecum colloqui, ideo non te vidi: nam et iste mihi praesens, quando ad me venire dignatus est, ille autem litteris, non faciem tuae carnis, sed cordis ostendit, ut tanto suavius, quanto interius te viderem. Hanc faciem tuam et in sancto Evangelio, et nos, et 1020 tu ipse, propitio Deo, tanquam in speculo laetissimus inspicias, ubi scriptum est a veritate dicente: Beati pacifici; quoniam filii Dei vocabuntur (Matth. V, 9). 2. Magni quidem sunt, et habent gloriam suam, non solum fortissimi, sed etiam, quod verioris genus est laudis, fidelissimi bellatores, quorum laboribus atque periculis, Dei protegentis atque opitulantis auxilio, hostis indomitus vincitur, et quies reipublicae pacatisque provinciis comparatur: sed majoris est gloriae, ipsa bella verbo occidere, quam homines ferro; et acquirere vel obtinere pacem pace, non bello. Nam et hi qui pugnant, si boni sunt, procul dubio pacem, sed tamen per sanguinem quaerunt; tu autem ne cujusquam sanguis quaereretur, es missus: est itaque aliis illa necessitas, tibi ista felicitas. Proinde, domine merito illustris et magnificentissime, atque in

Christo charissime fili, gaude isto tuo tam magno et vere bono, et frueri in Deo unde sumpsisti, ut talis esses, et talia gerenda susciperes. Confirmet Deus quod per te operatus est nobis (Psal. LXVII, 29). Accipe hanc salutationem nostram, et tuam dignare respondere. Sicut mihi scripsit frater Novatus, egit ut me excellentia et eruditio tua etiam in meis opusculis nosset. Si ergo legisti quae dedit, ego quoque innotui interioribus tuis sensibus. Non multum displicent, quantum existimo, si propensiore charitate, quam severitate legisti. Non est multum; sed multum gratum, si pro litteris nostris, et his et illis, unam nobis epistolam reddas. Saluto et pignus pacis, quod Domino Deo nostro adjuvante feliciter accepisti, ea dilectione qua debeo. » (Saint Augustin, Epistula CCXXIX).

ومعناه: "إلى الابن الجدير بالثناء والمجيد والمحبوب في المسيح داريوس، من أوغسطينوس، تحية في الرب

1. لقد عرفت من إخوتي القديسين وشركائي في الأسقفية، أوربانوس ونوفاتوس، مقدار عظمة شخصك وشرفك. الأول عرفك في قرية هيلاريا بالقرب من قرطاج، وحاليًا في سيسا؛ أما الآخر فتعرف عليك في سيتيفيس. من خلالهما، لم يعد بإمكانني أن أبقى غير عارف بك. ورغم أن ضعف جسدي وشيخوخة سني لا يسمحان لي بمقابلتك وجهًا لوجه، فإنني رأيتك. لقد أظهر لي أوربانوس، عندما زارني، وجه قلبك، لا جسدك، برسائله، مما جعلني أراك بشكل أعمق وأمتع

هذا الوجه الذي نراه نحن وأنت أيضًا بفرح في إنجيلنا المقدس، كأنه في مرآة، حيث كُتب على لسان الحق القائل " طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدعون " (متى 5:9)

2. إن عظيمًا هو شأن المحاربين الشجعان والمخلصين الذين يُنسب إليهم شرف كبير، إذ بفضل جهودهم ومخاطرهم، وبمعونة الله الحامية، يتم إخضاع العدو العنيد، وتُحفظ راحة الدولة وسلامة الأقاليم. ومع ذلك، فإن تحقيق السلام بالكلمة بدلاً من الحرب،

الباحث: عيسى حاجي

وبالسلام نفسه بدلاً من السيف، يُعتبر مجداً أعظم. لأن أولئك الذين يحاربون، إن كانوا صالحين، يسعون بلا شك إلى السلام، ولكن عبر الدماء؛ أما أنت، فقد أرسلت لتجنب سفك الدماء. لذلك، ما كان للآخرين واجباً، هو لك نعمة

لذلك، يا سيدي العظيم والجليل في المسيح، افرح بهذا الخير العظيم الذي منحك إياه الله، واستمتع بما جعلك عليه ومن أجله قمت بهذا العمل. ليؤكد الله ما عمله لنا من خلالك (مزمور 29: 67)

3. تقبل هذه التحية مني، وردّها بكرم. كما كتب لي الأخ نوفاتوس، فقد قدم لك كتاباتي الصغيرة لتعرفني من خلالها. وإذا كنت قد قرأتها، فإنني دخلت إلى قلبك. وأعتقد أنها لم تخيب ظنك كثيراً إذا قرأتها بمحبة أكثر من القسوة. هذا ليس كثيراً، ولكن إن أرسلت لي رسالة واحدة مقابل ما قرأت من كتاباتي ورسائلي، سيكون ذلك عظيمًا جدًا بالنسبة لي أحييك وأحيي سلامك الذي حصلت عليه بنعمة الله، بالمحبة التي أوجبتها عليّ"

في الخطبة 345 وجه أوغسطينوس للأغنياء الذين ساوموا الوندال بتسليم ثرواتهم مقابل حياتهم يقول فيها:

« II. Propter vitam queruntur divitiae, non vita propter divitias: quam multi cum suis hostibus pacti sunt, ut vitam solam redimerent? Quantumcumque habuerunt, totum dederunt, tantum ne vitam amitterent. Totum de Disti barbaris quod habuisti, frater? Inquit: Totum dedi, nudus remansi; etsi nudus, vivam. Et quare? Totus occidendus eram, idco totum dedi. Et quare tibi hoc contigit? Vis dico tibi? Quia antequam barbarus superveniret, pauperi non subveniebas, ut per pauperem eleemosyna ad Christum perveniret? Christo modicum non dedisti, et barbaris totum quod habuisti, dedisti, et hoc cum sacramento dedisti. Christus rogat, et non accipit: ille torquet, et totum aufert. » (Saint Augustin, Sermon CCCXLV, §II).

ومعناه: "[2] تُطلب الثروات من أجل الحياة، وليس الحياة من أجل الثروات. كم من أناس عقدوا اتفاقات مع أعدائهم ليحافظوا فقط على حياتهم؟ مهما كانت ممتلكاتهم، فقد

أعطوا كل شيء، فقط لكي لا يفقدوا حياتهم. يسأل أحدهم: "ماذا فعلت بكل ما تملكه أمام هؤلاء البرابرة، يا أخي؟" فيجيب: "أعطيت كل شيء، وبقيت عارياً؛ ومع ذلك، سأعيش." ولماذا؟ "لأنهم كانوا سيقتلونني بالكامل، لذلك أعطيتهم كل ما أملك"... ولكن لماذا حدث لك هذا؟ هل تريد أن أخبرك؟ لأنك، قبل أن يأتي البرابرة، لم تساعد الفقير، لكي تصل صدقتك من خلاله إلى المسيح. لم تعطِ المسيح القليل، لكنك أعطيت البرابرة كل ما تملك. ولم يكن ذلك فقط، بل أعطيتهم مع تعهد (أو التزام). المسيح طلب منك ولم يأخذ، أما هو فعذبك وأخذ كل شيء."

3. وفاة القديس أوغسطينوس:

في نفس السنة أي 430م بدأ المرض يشتد على أوغسطينوس وفي خضم الحصار الوندالي على هيبون، لم يتوقف قلمه، فقد كتب آخر مؤلفاته وهو ضد جوليان غير المكتمل (فردريك كوبلستون، 2013، ص72) بعدما أن كتب كتابه الاستدراكات Retractationes سنة 428م (علي زيعور، 1983، ص110).

وفي أوت 430م أحس بقرب أجله ودنو دينونته فعلق على حائط غرفته مزامير التوبة⁶ التي كان يقرأها كل يوم وفي العشر الأيام الأخيرة منع كل الزيارات إليه، إلى أن جاء اليوم الأخير من حياته أحاط به كل من تلاميذه ورجال الدين للصلاة معه مثلما يبدو (بالملاحق رقم1 الذي رسمه الرسام الفرنسي كارل فان لو) وكما ذكر بوسيديوس عن وفاة أوغسطينوس، وقد استمر بقراءة مزامير داوود المعلقة بجدران غرفته إلى أن توقف عن تمتاته وصاح بآخر كلماته على مسمع من تلاميذه " اللهم أطلق عبدك بسلام " (إسحق عبيد، 1977، ص87)، لتغادر روحه جسده الفاني إلى دار الرب في 28 من أوت 430م عن عمر يناهز 74

⁶ لم يحدد لنا بوسيديوس أي مزبور من 150 مزبور قد علقه أوغسطينوس على حائطه لكن قدم لنا إشارة إلى أنه مزبور التوبة وهناك 7 مزامير للتوبة وهي كل من مزبور (6-32-38-51-132-143)، وهذه المزامير كان النبي موسى عليه السلام يقرأها كل ليلة للمناجاة الإلهية.

الباحث: عيسى حاجي

سنة كرس منها 40 سنة لخدمة الكنيسة الكاثوليكية ورعاياها (Possidius, 1988, p129-130).



الملحق رقم 01: لوحة تصور اليوم الأخير من حياة القديس أوغسطينوس، رسمها الفرنسي كارل فان لو سنة

1755 بطلب من الملك الفرنسي لويس الخامس عشر، اللوحة في كنيسة نوتردام دو فيكتور بباريس

المصدر: <https://www.notredamedesvictoires.com/nos-activites-paroissiales/>

4. خاتمة:

وفي الختام نخلص إلى:

أن محاولة الغزو الوندالي لشمال إفريقيا لم تكن الأولى فقد سبقتها محاولات لكن باءت كلها بالفشل، وبالرغم من ذلك مهدت وسهلت للوندال بالدخول إليها والسيطرة عليها ومن جهة أخرى بينت مدى ضعف الإمبراطورية الرومانية الغربية.

لقد تعددت الأسباب التي دفعت الوندال للغزو لكن السبب الاقتصادي كان هو السبب الرئيسي وهذا راجع لما كانت تزخر به منطقة شمال إفريقيا من خيرات وتنوع اقتصادي وهذا نقله إلينا كل من الأسقف كودفولنديوس وفيكاتور الفيتي.

لم يبد السكان المحليين أي ردة فعل ضد الوندال بسبب الممارسات الرومانية والاضطهادات التي مورست في حق الدوناتيين من قبل الكنيسة الكاثوليكية، بغض النظر عن أسباب الغزو ومراحله؛ وكما نلاحظ أن أوغسطينوس ترك لنا في رسائله إشارة للأحداث الحاصلة في شمال إفريقيا خاصة وأنه عاش مدة قصيرة من الحصار الوندالي لمدينة هيبون، لكونه شاهد عيان وكان متابعاً للأحداث بتفاصيلها، وأيضاً كانت له وجهة نظر مبنية على التعاليم المسيحية حيث رفض مغادرة المدينة للسلك الكهنوتي خاصة وأنه يجب تحمل المعاناة في سبيل الناس العاديين وأن تكون الكنيسة في خدمة المؤمنين، غير أن موقفه كان متأرجحاً حيث دعا للسلام وأثنى على فاعليه مثل القائد داريوس وأنه يجب المحاربة بالكلمة لا بالسيف، وعاتب الكونت بونيفاس في تأخره عن صد هجمات الوندال وأيضاً وصف المحاربين بالعظماء وأنهم يستحقون الشرف، زيادة على ذلك وبخ الأغنياء الذين ساءموا الوندال بتسليم ثرواتهم وممتلكاتهم مقابل حياتهم، وكان من الأجدر أن تكون في سبيل الفقراء والمسيح.

بالرغم من القديس أوغسطينوس توفي ومازلت هيبون تحت الحصار الوندالي، إلا أن كتاباته عن الغزو ساهمت ولو بالشكل القليل لرسم تاريخ تلك الحقبة وفهم بعض حيثياتها.

5. قائمة المصادر والمراجع:

المصادر

المصادر العربية:

العهد الجديد، د ط، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1951.

المصادر الأجنبية:

Possidius, 1988, *The life of saint Augustine*, Trans : Cardinal Michele

Pellegrino, Augustinian press, USA.

AL. Goldbacher, 1923, *S. Aureli Augustini opera, Sectio II*, S. Augustini Epistulae,

Ex recensione Al, F. Tempsky & G. Freytag, Vindobonae & Lipsiae.

Quodvultdeus, *De tempore barbarico*, sermon II.

Procopé de Césarée, 2009, *La guerre contre les Vandales*, 3ème edition, Liv I, Tr par Denis Roques, Les belles Epistulas, Paris.

Victor Vitensis, *Historia Persecutionis Africae Provinciae*, Liber I.

Saint Augustin, *Sermons (341-400)*, Tr by : Edmund Hill O.S.A, New city press, New York.

المراجع:

المراجع العربية:

حارش محمد الهادي، 2013، *التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري*، ط3، دار هومو للطباعة، الجزائر.

جوليان شارل أندري، 1983، *تاريخ إفريقيا الشمالية*، تر: محمد مزالي والبشير بن سلامة، ط4، دار النشر التونسية، تونس.

رستم أسد، 2017، *الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب*، د ط، مؤسسة الهنداوي للنشر، المملكة المتحدة.

زيعور علي، 1983، *أوغسطينوس*، ط1، دار اقرأ، بيروت.

عبيد إسحق، 1977، *من آلارك إلى جستنيان*، ط1، دار المعارف، مصر.

الباحث: عيسى حاجي

عمران محمود سعيد، 1985، مملكة الوندال في شمال إفريقيا، د ط، دار المعارف، مصر.
الناصري سيد أحمد علي، 1991، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، ط2،
دار النهضة العربية، مصر.

المراجع الأجنبية:

Bigelow Poultney, 1918, *Genseric king of the Vandals and first prussian kaiser*,
2éme edition, The Knickerbocker press, London.

المقالات العلمية:

David L. Eastman, 2024, *Quodvultdeus of Carthage*, Journal of African Christian
Biograpy, vol 09, no 01.

الرسائل الجامعية:

حمودي نبيلة، 2020/2019، مقاومة المور للاحتلال الوندالي (429-533م)، أطروحة
مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه الطور الثالث ل.م.د تخصص تاريخ الحضارات القديمة، تحت
إشراف: بنت النبي مقدم، جامعة الجزائر 02.

زموري خديجة، 2018/2017، القديس أوغسطين بين السلطة الرومانية والمجتمع المحلي،
أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه نظام ل.م.د، تحت إشراف: عبد المالك سلاطنية، جامعة 8
ماي، قالمة.

الطويل عماد، 2018/2017، المور والتحولت السياسية والعسكرية في المغرب القديم
خلال الفترتين الوندالية والبيزنطية (5-7م)، تحت إشراف: رحمان بلقاسم، أطروحة مقدمة
لنيل دكتوراه العلوم في التاريخ القديم، جامعة الجزائر 02.

عيبش يوسف، 2007/2006، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لبلاد المغرب اثناء
الاحتلال البيزنطي، أطروحة دكتوراه دولة في تاريخ وأثار المغرب القديم، تحت إشراف:
محمد البشير شنيقي، جامعة منتوري، قسنطينة.

المحاضرات الجامعية:

موقف القديس أوغسطينوس من الغزو الوندالي لشمال إفريقيا

طويل عماد، *الاحتلال الوندالي لبلاد المغرب القديم ومقاومة المور*، مطبوعة بيداغوجية موجهة لطلبة ثانية تاريخ في مقياس تاريخ وحضارة المغرب القديم، جامعة سطيف، د.ت.

المواقع الإلكترونية:

<https://journals.openedition.org/anabases/5793>

<https://www.notredamedesvictoires.com/nos-activites-paroissiales/>